رحلة الى حلب والشام

« في سنة ١١٥٠ هـ — ١٧٣٧ م »

— ٣ —

وبعد ان آب السيد احمد الأدهمي من رحلته في حلب الى وطنه طرابلس الشام مكث اياماً ثم تهيأ للرحلة الى دمشق الشام وذلك بعد خمسة ايام خلت من ربيع الثاني سنة (١١٥٠هـ) قال « فشددنا نحوها القُلُص الرواسم . وكان لقساها لدينا من أعظم المواسم . وبتنسا ليلة السبت على الدنك خارج البلد . باسطين أكف الدعاء الى الفرد الصمد .... وكان برفقتنا السيد عثمان من ابناء دمشق الشام » . الدنك لفظة تركية مازالت مستعملة الى اليوم ومعناها (البالة والرزمة) فلعله عنى بالدنك رزمة البضاعة والمتاع اي ان كل واحد منهم بات على رزمة متاعه . ويظهر ان المسافرين كانوا يومئذ يبيتون خارج السور حتى اذا طلع الفجر نهضوا للسفر . وانما لم يناموا في بيوتهم ثم ينهضوا لان للمدن يومئذ أسواراً وأبواباً مقفلة لا تفتح الا بعد طلوع الشمس . فمن ثم كان المسافرون مضطرين الى البيتوتة خارج الأسوار على رزم البضائع . وقد كان سفرهم الى دمشق من طريق لبنان وجبة بشري فتسأقوا فنهسا الى بعلبك ومنها الى دمشق . وقد صلوا الفجر حيث كانوا نائمين على (الدنك) ثم ساروا حتى طلعت عليهم الشمس بين الزيتون فأناخوا ثمة وتناولوا الفطور . وعلل نزولهم بين الزيتون بقوله : « وكان الداعي الى النزول في هـذا المكان . انتظار الكيروان باقي دوابه الذين في جبلة بقصد تحميل الدخان » . و (الكيروان) تكتب بالقاف غالباً فيقال (قيروان) وهي كلة فارسية معناها القافلة ويحتمل ان يكون المؤلف أراد بالكيروان هنا رئيس القافلة لا القافلة نفسها اذ قال ان الكيروان كان ينتظر بقية دوابه التي كانت في مدينة جبلة تجلب منها الدخان (وهو التتن) بقصد تحميله للتاجرة به . وجبلة على مقربة من اللاذقية وما زالت زراعة التتن وتجارته رائجة أيما رواج في ذلك الحيّز . ثم نهضوا للسفر في الليل فقطعوا تلك العقساب الصعبة المرتقى وضلوا الطريق وحصل نزاع بين المكارية بسبب ذلك كاد يؤدي الى قتال حتى وصلوا الى قرية (بطرزه) فصلوا فيها الفجر ولما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعالى النهار انتقلوا الى مكان بقرب العين للقيلولة ثم بانوا هناك الى ثلث الليل الأخير فتحملوا للسفر وقاسوا مشقة في قطع (عقبة السنديانة) بحيث نسوا مشقات عقبتي (السفكون) و(القرشية) بين اللاذقية وادلب . ثم وصلوا الى (الحدد) كذا ولعلها محرفة عن (الحدث) بالثاء والحدث محرفة عن (الحدث) بالثاء وفي سوريا عدة قرى بهذا الاسم . وهذه الحدث تسمى (حدث الجبة) اي جبة بشري تمييزاً لها عن (حدث بيروت) و(حدث بعلبك) لكنهم لم يجدوا فيها مكاناً يستظلون به من حرارة الشمس فاتخذوا مظلة لهم من البسط التي معهم قال « وتوارد علينا من سائر الأقطار . طائفة الحمادية سكان تلك الديار . وسلكوا معنا طريق الأدب والانصاف ؛ ولم يحصل منهم تعدي ولا خلاف . حتى ان كبيرهم ورئيس امرهم ومشيرهم قدم ذبيحة ثمينة . من غير ان يأخذ لها قيمة » . والحمادية أسرة شيعية كبيرة تنتسب الى حمادة العجمي الذي نزل بعشيرته في سورية هرباً من شاه العجم وكان لابنائه وأحفاده أمارة في كسروان والبترون وجبة بشري الى بعلبك . ومن بقاياهم متاولة الهرمل . وكان لحمادة المذكور ولد اسمه ابو زعزوعة هو واولاده من بعده تولوا جبة بشري وبقوا فيها الى سنة (١١٧٣هـ — ١٧٥٩ م) اي بعد مرور مؤلف الرحلة بثلاث وعشرين سنة فتألبت عليهم موارنة الجبة وطردوهم منها وخلفهم في تولي البلاد الأسر المورانية الباقية الى اليوم كأسرة الظاهر والدويهي وعواد وغيرهم . والمشايخ الحمادية هؤلاء أتعبوا ولاة طرابلس وأمراء بني شهاب تعباً عظيماً : فقد كانوا أشداء ذوي نعرة وشكيمة وهذا مع تشيعهم جعلهم بين السنيين والموارنة وارثوذكس الكورة عنصراً غريباً في البلاد ومازال الولاة يطاردونهم حتى محقوهم . وكان الشيخ النابلسي مر بطرابلس سنة (١١٠٥هـ) اي قبل رحلة (الادهمي) بنحو خمس واربعين سنة فرأى وهو داخل الى طرابلس من جهة حمص خياماً منصوبة على هضبة قبالة مزار (الشيخ البداوي) فسأل عنها فقيل له انها خيام الوزير علي باشا والي طرابلس وقد خرج منها (لقتال الطائفة الحمادية الروافض العنادية) .

ثم ان المؤلف ورفقته نهضوا من الحدد (الحدث) الى مكان يقال له (البالوع) بعد ان قاسوا عناء عظيماً فلم يجدوا فيه ظلاً « غير صحراء بلقع . حاوية لانواع الذباب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أجمع . كل ذبابة قدر زنبور . ولها صوت كصوت الطنبور . اذا أنشبت بالجسد أنيابها . أخرجت الدم بمخلابها . (اي مخلبها والمخلب الظفر » :

(بعوض جعلن دمي قهوة وغنينني بضروب الاغاني)
(كأن عروقي أوتارهن وجسمي الرباب وهن المغاني)

وركد النسيم فلم يهب عليهم في (البالوع) فكادوا يختنقون حتى أقبل الليل فهب عليهم نسيمه بليلاً منعشاً . قال « ورحلنا قاصدين بعلبك ورأس العين ولي شوق زائد المقدار . الى الشرب من عين طار ذكرها في الاقطار » . وكما انه كان في شوق الى الشرب من العين المذكورة كذلك كان له شوق شديد الى رؤية مفتي بعلبك الذي قال فيه « فقد مدحته الألسن والأفواه . وتعلق قلبي بحبه قبل ان أراه » . اما والي بعلبك فشوقه اليه أشد وأعظم بالطبع وذلك حيث يقول « واما باشتها وواليها . وناشر ألوية العدل بناديها . فانه هو الذي مدحه السيف والقلم ..... فان لي بجنابه الكريم . ومقامه السامي العظيم . اجتماعاً وانا بثغر دمياط وهو متوجه لمصر ذات الاهرام . بقصد الاجتماع على وزيرها وأمرائها الكرام . فخل منه ومنهم مكان الانسان من العين ... ولا سيما امير اللواء اذذاك ذو الفقار . فانه اختاره لنفسه واصطفاه ... وبعد ذلك دخل (اي والي بعلبك) القسطنطينية . ومحل السلطنة العثمانية . وكنت كثيراً ما أتوقع حسن أخباره . وأنشر بين الناس جميل آثاره » . هذه هي معرفة المؤلف بوالي بعلبك ثم وصف مبلغ شوقه اليه حتى زار وطنه طرابلس وقصد دمشق فرأى ان الفرصة حانت لرؤية صديقه في بعلبك قال « لارى ما يسر فؤادي . من حسن مقامه المهلك للاعادي . واني لأرجو له فوق ذلك مظهرا . وان يرقيه الوزارة في الدنيا والسعادة في الاخرى » . ووصلوا الى رأس العين سحراً فناموا وفي الضحى دخلوا بعلبك . فممن اجتمع بهم من اهلها الشيخ احمد الخطيب فوصفه بالفضل والأدب والسمن مذ قال « قال الامام الأعظم : ما أفلح سمين الا ابن الحسن . وانا أقول ما أفلح سمين الا الخطيب في هذا الزمن .... فوجود مثل هذا الذكي الباهر . في مثل هذه البلدة غريب ونادر » . ثم ذكر ممن اجتمع بهم اخا الشيخ الخطيب لكنه لم يسمه ووصفه باللطف والأدب والذكاء وحسن الخلق . ومنهم (الشيخ يحيى) مفتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعلبك وصفه بقوله « حرم تلك الديار وكعبتها ... حاتم عصره ... وخليفة ابي حنيفة النعمان .... اجتمعت بهذا النحرير . في خلوة الخطيب بجامع الكبير » . ثم ذكر منهم (جناب حضرة صالح باشا) وقد سرد له من الأوصاف والألقاب ماشا . وهو في الغالب صديقه حاكم بعلبك الذي يود رؤيته كما مر فقال عنه انه « حين بلغه ورودي لناديه . أرسل لي مطرجي باشا يدعوني الى الحضور لبين ايديه » ومطرجي باشا هذا لا نعلم ماهو عمله في بعلبك اذ ذاك غير ان أسرة المطرجي من أسر اللاذقية ومنها أرسلان باشا واخوه قبلان باشا اللذان كانا والبين في طرابلس الشام في حدود الالف ومائة للهجرة . ولما زار الشيخ النابلسي طرابلس سنة (١١١٢ هـ) كان واليها أرسلان باشا المذكور . ويوجد الى اليوم في طرابلس وفي اللاذقية أسرتان باسم (المطرجي) وكلمة المطرجي تركية الصيغة محرفة عن (مطره جي) اي صاحب المطرة (بالتحريك) والمطرة ابريق معدن اوجلد بشكل خاص يستقى به الماء اكثر من يستعمله الجنود والمسافرون ولعله عربي الاصل من (المطر) لان المسافر غالباً يملأ مطرته من مياه المطر المتجمعة في القلات والغدران . اما صالح باشا هذا ففي الغالب انه مولى على بعلبك من قبل ولاة الشام بعد ان خضدت الدولة من شوكة الحرافشة أمراء بعلبك المشهورين . ثم وصف دخوله على (صالح باشا) وحفاوة هذا به وكان في المجلس الشيخ يحيى مفتي بعلبك وجرت بينهم مذاكرات علمية ضربنا صفحاً عن ذكرها وذكر أمثالها لكننا نود ان نذكر مسألة تفسيرية أعجبتنا جداً قول المؤلف فيها: ذلك ان سائلاً سأله عن هاتين الآيتين (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) فلماذا في الاولى قدم ضمير المخاطبين (نرزقكم) وفي الثانية الغائبين (نرزقهم) فأجاب بنعم الجواب : المخاطبون في الاولى فقراء بدليل (من إملاق) فالأهم ان يقدم الوعد برزقهم والمخاطبون في الثانية اغنياء بدليل (خشية إملاق) فالأهم ان يقدم الوعد برزق اولادهم وهذا من الحسن بمكان رفيع . ثم تناول المؤلف الطعام عند الباشا الذي ألح عليه ان يبقى في ضيافته ثلاثة ايام فاعتذر ودعا له . ثم ذهب مع رفاقه الى رأس العين حيث هيأ لهم المفتي طعام العشاء وبعده تحملوا للسفر الى دمشق فوصلوا بعد طلوع الشمس الى (سرغايا) فمدح ظلها وماءها ثم وصلوا (الحسينية) على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نهر بردى ووصلوا دمشق وقت السحر ودخلوا من (باب السريجة) قال « وقصدنا مكان صديقنا القديم جناب اخينا (السيد محمد اليلداوي) . حفظ الله ذاته من المحظورات والمساوي » . وصداقته معه من مصر ولعلها عن طريق المجاورة في الأزهر قال : « و بالحقيقة فهو الباعث على قدومي لدمشق . والصدق في ذلك أولى وأحق . لانه من حين ورودي ديارى . واجتماعي باقاربي وأنصاري . لم يفتر عن دعوتي لبلدته . وفي كل ركب يتحفني بهداياه ومكاتبته .... فوصلت قبيل الفجر الى خانه المعهود . فوجدت بابه مقفولاً ومردود . فقرعت حلقة الباب . فخرج لنا من غير تقاعس البواب .... فقلنا له نحن أصدقاء وأحباب . الى جناب السيد محمد اليلداوي خلاصة الانجاب . فأظهر السرور . وأدخلنا الى الخان وقاد لنا النور » . لعل صوابه (وأوقد) . ووصف حفاوة الخادم بهم حتى طلع الفجر قال « فتوجهنا الى الجامع الأموي من غير توانٍ فزرنا جناب نبي الله يحيى و به تملينا » . فلما أقيمت صلاة الصبح صلوها وقعد المؤلف يتلو القرآن . وهنا يحق لنا ان نعتب على المؤلف عتباً شديداً : فقد مرنا معه في رحلته هذه بطولها فما كنا نراه يمر بضريح منسوب الى احد الاولياء . او الصلحاء الاتقياء . حتى يكتب من الأسطار . نحو ثلاثة أمتار . وكلها استمداد ومناجاة . ومدائح ودعوات . أمام ذلك الضريح الرهيب . وان لم يكن لصاحبه شهرة في التاريخ ولا نصيب . اما امام ضريح سيدنا يحيى الحصور . فانه اكتفى بكلمات كمنقار العصفور . مع ان سيدنا نبي الله يحيى . من الانبياء الذين بذكرهم القلوب تحيى . ومكان قبره هذا ثابت معروف . وبالجلال والمهابة منعوت وموصوف .

ثم بلغ الخبر صديقه (الشيخ محمد الديري[1]) فأسرع الى الجامع وأخذه الى داره وأراد إنزاله عنده فأبى الا النزول لدى صديقه الذي دعاه الى دمشق وهو السيد محمد اليلداوي ولم يفجأهم الا قدوم السيد مصطفى اليلداوي شقيق السيد محمد ، وأخبرهم ان اخاه المذكور سار الى لقياهم خارج البلد في جملة من الاصدقاء فكأنهم تخالفوا في الطريق ثم لم يلبث السيد محمد نفسه ان قرع الباب ودخل عليهم فعلت أصوات الابتهاج

(١) راجع ترجمته في المرادي (جزء ٤ ص ٣٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والترحيب من كل جانب وبعد هنيهة أقبل الشيخ اسماعيل العجلوني[١] للسلام على المؤلف ثم انتقل الى دار السيد محمد اليلداوي . فناموا واكلوا ثم أخذهم الى حمام الخياطين الذي (كأنه لحسن بنائه جلاء للناظرين فوجدناه على وفق المراد . حوى ما اشتمل عليه غيره وزاد .) قال « فلما دخلنا اليه . واطلعنا على ما اشتمل عليه . وافانا البطيخ والعنب . مع اخوان عليهم سيما الانس والطرب » . ثم خرجوا فتناولوا القهوة والشربات قال « ولما أردنا لبس الثياب . رأينا بقجة فاحت منها روائح الطيب بلا ارتياب . ورأينا طي البقجة خلعة سنية . مشتملة على مايليق من الكسوة البهية » . ثم خرجوا من الحمام الى الدار وفي ثاني يوم نزل الى الشوارع قال « فلم تنفتح عين الاعلى قطين جمع أشتات الأدب . وطبع على حسن الكمال وعلى محاسن الفصاحة دأب » . الى آخر ماقال في وصف الدماشقة . ثم وصف جامع دمشق ونقل ما قاله المؤرخون والرواة عنه من ذلك ان العمودين اللذين في المحراب كانا في عرش بلقيس . وعند المنارة الشرقية حجر من حجر موسى[٢] الذي ضربه بعصاه فانبجست منه اثنتا عشرة عينا . ومن عجائبه انه لو عاش احد مئة سنة لرأى فيه كل يوم مالم يكن رآه في اليوم الذي قبله من حسن الصنعة . وان دخله من اوقافه كل يوم الف ومائتا دينار تصرف المائتان في المصالح والباقي يحفظ في خزانة السلطان . قال المؤلف « وفي هذا الجامع اجتمعت بائمار دمشق الشام . وتمليت برؤية علمائها الاعلام » . وعد منهم الشيخ اسماعيل العجلوني

---

(١) الشيخ اسماعيل هذا من اكبر علماء دمشق في ذلك العصر وله ترجمة مسهبة في المرادي (جزء ١ ص ٢٥٩) . (٢) ومن حسن المصادفة اننا حين وصلنا الى تصحيح هذه الجملة عثر بعض اخواننا وهو يتصفح تاريخ ابن عساكر (جزء ٧) في ترجمة محمد بن احمد ابن ميمون — عثرنا على مايأتي : « طلع بعض قضاة دمشق المأذنة الغربية فرأى حجارة مكتوبة فطلب من يقرؤها حتى دل على رجل . فقرأ واحداً منها فاذا عليه مكتوب فيما زعم : هذا الحجر قسيم الحجر الذي انفلق لموسى بن عمران عليه السلام . وقرأ حجراً آخر فاذا عليه مكتوب : بني هذا الهيكل لعبادة إلٰه الآلهة على جزاز الصدق وجزاز الكرم (كذا) اه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي ذكره اولاً باختصار فعاد الى ذكره هذه المرة وسود صفحتين ملأهما بذكر القابه ومحاسنه وفضائله: من ذلك انه « كتب على البخاري شرحاً فاق به الأوائل. لانه بلغ على الربع نحو مئة كراس بالكامل » . ودعا ان يوفقه الله الى اتمامه . ثم انتقل المؤلف من ذكر الشيخ اسماعيل العجلوني الى مباحث في الشعر واللغة والأدب وفنون من الاخبار مختلفة سوّد لها نحو مئة وعشر صفحات من رحلته . ويغلب على الظن ان معظم ما كتبه المؤلف انما كتبه بعد اي حين تبييض الرحلة وليس هو مما كان نقع المذاكرة به في مجالسه مع من كان يجتمع بهم . ثم قال المؤلف بعد ذلك ان ممن اجتمع بهم في دمشق (الشيخ مراد السقموني) امين الفتيا واثنى على علمه وفضله وانه يحفظ مقامات الحريري وأُعجب بها وانه سأله عدة مسائل مشكلة فيها فكان يجيب عليها . ويظهر من اسئلة الشيخ السقموني انهم في ذلك الزمان كانوا يسألون للامتحان والاختبار ولم يكن المسؤول يتأثر ولا يمتعض وهذا على خلاف ما نحن عليه اليوم فان المسؤول اذا آنس من السائل انه يريد اختبار علمه وسبر غور معرفته امتعض وعد هذا الصنيع مزرياً بالجليس ماساً بكرامته . وختم المؤلف حديثه عن الشيخ مراد السقموني بقوله « وبالجملة فهو الأديب الذي كيل له من الادب أوفى كيل . وناهيك بامام قد ترجمه الأمين في الذيل » . يريد ان الشيخ امين المحبي ترجم السقموني في الذيل الذي وضعه لريحانة الألباء . واجتمع المؤلف باحمد افندي العمادي [1] مفتي دمشق وأثنى عليه وعلى أسرته واجتمع بالشيخ احمد المنيني فقرظه تقريظاً حسناً وقال « قد سمعته وهو في جامع بني أمية يقرأ التفسير . وعرف فضله يتضوع ذاكي العبير . والناس تهرع اليه زمراً بعد زمر . والطلبة محدقون به إحداق الهالة بالقمر . فسمعت من رقة لفظه المطبوع الرائق . وكمال تقريره العذب الفائق . ما أنبأ عن مقامه . وقضى بتعظيمه واحترامه » . واجتمع ايضاً بالشيخ موسى المحاسني [2] فأثنى عليه وقال « له الشهرة الكبرى في قوة الحافظة . والهمة العليا في حسن الضبط والمحافظة . قد سمعته وهو يقرأ صحيح البخاري ؛ ومن شدة الحفظ يروي أحاديثه مع

(١) راجع ترجمته في المرادي (جزء ١ ص ١٣٣) . (٢) راجع ترجمته في المرادي أيضاً (جزء ٢ ص ٢٢٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الضبط كالماء الجاري » . ومنهم الشيخ محمد الكنجي أثنى عليه وقال « له في أنواع التشبيه . تأليف جم لم يسبق له شبيه . قد لهجت بمدحه ألسنة اهل الكمال . ووصفوه ابانه غريب التوصيف ليس له مثال » . ولم يترجم المرادي للكنجي هذا وانما ترجم لآخر اسمه محمد بن محمد الكنجي كان يتولى نيابة القضاء وتوفي في القرن الحادي عشر ولعله ابو هذا الكنجي او جده . ثم ذكر المؤلف انه اجتمع في دمشق باحد أكابر علماء بلده طرابلس وهو الشيخ محمد التدمري الطرابلسي مفتي طرابلس . وكان السبب في نزوله دمشق ان سليمان باشا العظم لما تولى طرابلس ورأى علمه وفضله لازمه وأقبل عليه ولما تولى دمشق استصحبه اليها قال « وقد اجتمعت به وهو في جامع بني أمية يقرأ الدر المختار . ووجهه يكاد يتلألأ بالانوار . قد كساه الشيب حلة تعظيم . فمن رآه قال ما هذا بشر ان هو الا ملك كريم » . وأسرة التدمري هذه ما زال منها بقية الى اليوم بطرابلس . ثم ذكر المؤلف سليمان باشا (العظم) امير الحج ووالي دمشق واثنى عليه بضروب المحامد ووصفه بالشجاعة والعدل وانه من حملة السيوف والأقلام . وقال انه كان له به اتصال ومحبة وانتساب وذلك حين « جربه الدهر . تجربة الياقوت بالجمر . ثم صفا له الوقت وعاد . على رغم الاعداء والحساد . وتولى طرابلس الشام . واستنارت بنور عدله الأحكام » . ولا يخفى ان سليمان باشا هذا تولى دمشق للمرة الاولى من سنة ١١٤٦ الى ١١٥٢ ثم وليها ايضاً من سنة ١١٥٤ الى ١١٥٦ ثم قال المؤلف انه لما جاءت البشرى بسلامة سليمان باشا أرسل اليه كتاباً وقصيدة يهنئه بعودته للولاية . ويفهم من سياق الكتاب ان الولاية التي عاد اليها انما هي ولاية طرابلس الشام . ثم قال « وقد كنت أرسلت لجنابه وهو بقلعة صيدا ممنوعاً عن الظهور . تسلية لوقوع هذا المحظور » . ثم ذكر الكتاب الذي أرسله اليه وهو مسجون بصيدا وسلاه بما قاله الأدباء والشعراء في تسلية المسجين من ذلك قول علي بن الجهم :

(قالوا سجنت فقلت ليس بضائري سجني واي مهند لا يغمد) الخ .

وكان الباشا سجن في صيدا بعد عزله من طرابلس فأرسل اليه المؤلف كتاب التسلية ثم خلي سبيله وولي دمشق فأرسل اليه كتاب التهنئة ثم جاء بنفسه الى دمشق قال « وحين اجتمعت على جنابه بداره دار السعادة لاطفني ... وسألني عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سيب رحلتي . وعما وقع لي في سفرتي . وأوسع لي في الاكرام الخ » . ثم عاد المؤلف الى إتمام الكلام . على ماجرى له في دمشق الشام . فقال « ثم بعد اجتماعي بهؤلاء السادات . فرغت نفسي للتفرج على المفترجات . التي طار ذكرها في الافطار . ومدحتها الادباء في النظام والنثار » . ثم أخذ يسرد ماقاله الشعراء في وصف دمشق . والظاهر من كلمة (المفترجات) انه يريد بها الاماكن التي تصلح للفرجة عليها ونسميها اليوم متنزهات او متنزهات . اما (المفترجات) فلا نعرفها بل لم نسمعها بعد وهي مشتقة من مادة (الفرجة وتفرج) ولا نعلم ان كان هو الذي اخترع تلك الكلمة او كان يستعملها اهل زمانه فتابعهم عليها . لكنه مع الأسف لم يذكر تلك (المفترجات) التي زارها ولا اعتنى بوصفها لنا وانما هو سرد ماقاله الشعراء في جمال دمشق بوجه عام ثم شغلته مسائل العلم التي كانت تجري في مجالس أنسه بدمشق عن كل شيء سواها فكان يسود الصفحات الكثيرة من رحلته بذكر تلك المسائل ونقل ماقاله العلماء الأفذاذ فيها وبعد ان فرغ من تلك الأشعار في وصف دمشق قال « ولما وقفت على تلك المفترجات . ونزهت طرفي في تلك المتنزهات . وافق الأثر العين . وقلت بانها جنة بلا مين » . ثم كذب بعض الحساد الذين أولعوا بهجو دمشق من ذلك قول بعضهم فيها :

(تجنب دمشق ولا تأتها وان رافك الجامع الجامع)
(فسوق الفسوق بها نافق وفجر الفجور بها ساطع)

وقول ابي بكر محمد الكاتب الاندلسي :

(دمشق جنة الدنيا حقيقاً ولكن ليس تصلح للغريب)
(بها قوم لهم عدد ومجد وصحبتهم تؤول الى حروب)
(ترى انهارهم ذات ابتسام وأوجههم تولع بالقطوب)
(أقمت بدارهم ستين يوماً فلم أظفر بها بفتى أديب)

فرد المؤلف هذا القول وزيفه ثم استشهد بما قاله صاحب نفح الطيب وغيره ثم قال « والمفاخرة بين مصر والشام وحلب امر قد شاع . ولكن الحق أحق بالاتباع . ولقد أنصف من قال :

(في حلب وشامنا ومصر طال اللغط)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فقلت قول منصف خير الامور الوسط)

والظاهر من سياق كلام المؤلف انه يريد بقوله خير الامور الوسط ان الاعتدال في الحكم والتوسط فيه خير من الإفراط والمغالاة . ويمكن ان يكون قائل هذين البيتين أراد تفضيل دمشق لانها واقعة وسطاً بين مصر وحلب ولا سيما انه دمشقي كما يفهم من قوله (شامنا) . ومن هنا استطرد المؤلف الى ذكر بلده طرابلس وتغنى باوصافها . وجمال رياضها وأرباضها . من ذلك قوله فيها « ومرجها اليانع الأخضر . وهضابها العقيق الأحمر . ولبنانها الابيض المنير . المطل على زرقة البحر الكبير . ونهرها العذب الغضبان . الذي به أبنع من كل فاكهة زوجان » . ويفهم من هذا القول ان نهر طرابلس كان يسمى الغضبان وكذلك سماه الشيخ النابلسي في رحلته اما اليوم فاسمه (ابو علي) . وكذلك جبل لبنان نسبه المؤلف الى طرابلس نسبة التابع الى المتبوع فقال (ولبنانها) اي لبنان طرابلس . اما اليوم فانعكس الحال واصبحوا يقولون (طرابلس لبنان) مكان (لبنان طرابلس) فسبحان المغير ولا يتغير . قال المؤلف « وجعلت ختام زياراتي الصالحية .... وأقمنا بقصر المنقاري ثلاثة ايام .. مع والد صديقنا السيد عبد الجليل اليلداوي » . ثم وصف مبلغ الضيافة . من الحسن والنفاسة والسعة . ويظهر ان (قصر المنقاري) هذا في الصالحية كانوا يقصدونه لأقامة ولائم النزهة فيه كقصر (شمايا) في دير اليوم . ثم ذكر المؤلف انه زار ضريحي الرجلين الالهيين الكبيرين الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ عبد الغني النابلسي وسوّد في الكلام عليهما نحو اربعين صفحة وقال انه كان اجتمع بالشيخ النابلسي في حياته وهو يقرأ التفسير في مقام الشيخ الاكبر وقد أجازه وذلك سنة ١١٢٩ اي قبل زمن الرحلة بواحد وعشرين سنة وعلى هذا فالمرادي قد أخطأ والنساخ أخطأوا في قولهم ان مولد الادهمي مؤلف الرحلة كان سنة (١١١٩) اذ لا يعقل ان النابلسي أجازه وعمره عشر سنوات فليصحح ماذكره المرادي في ترجمة الادهمي . ثم قال المؤلف انه وهو بدمشق لازمه الشيخ عبد الله بن عمر الأفيوني وهو من شعراء طرابلس الشام لكنه نزل دمشق وأوطنها وتوفي فيها وسرد له المؤلف طائفة من شعره وقال انه توفي شاباً [1] وله مقامة في

(١) راجع ترجمة الشيخ عبد الله هذا في المرادي (جزء ٣ ص ٩٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الطاعون الذي وقع بالشام لكن المؤلف لم يطلع على تلك المقامة وبهذه المناسبة ذكر ان صديقه الشيخ داود المراغي المصري له رسالة في وصف الطاعون الذي حصل بمصر سنة ١١٣٨ هـ وقد فتك فيها وفي أريافها فتكاً ذريعاً ثم ذكر رسالة المراغي ومما جاء فيها ان الناس كانوا يشمون اللادن [١] توقياً من الطاعون ومنهم من استعمل بالخل والبصل حتى قال شاعر ذلك العصر :

(أراك تشم الخل في زمن الوبا تظن بأن الخل ينجيك يا خلي)
(اذا كان رب الموت بالموت قد قضى تموت به رغماً وأنفك في الخل)

ومما قاله المراغي في رسالته « فلو شاهدت كثرة النعوش وحملتها وهم من كل حدب ينسلون . يلهون ويلعبون كأنهم آمنون . لقلت انا لله وانا اليه راجعون . ومثلهم في ذلك القراء والمغسلون . حتى انهم لقلة الاموات يحزنون . وبكثرتها يفرحون . ومن الحكم انهم لا يصابون . أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » .

ثم ان المؤلف عزم على الرحيل من دمشق والرجوع الى مصر فذكر ما أبقته دمشق في نفسه من الأثر وانه اذ ودعها كان يتمتع برؤية جمالها والشرب من أنهارها . قال وان في دمشق عدة أنهار وفي حلب نهر واحد اسمه قويق ومع هذا فقد وجد لقويق من يمدحه ويفاخر به كما يفاخر الدماشقة ببردى وغيره من أنهارهم . وذكر ما قاله كل قبيل في نهر بلده . من ذلك قول الصنوبري في قويق :

(قويق اذا شم ريح الشتا أظهر تيهاً وكبراً عجيبا)
(وان أقبل الصيف أبصرته ذليلاً حقيراً ضعيفاً كئيبا)
(اذا ما الضفادع نادت به قويق! قويق! ابى ان يجيبا)
(وتمشي الجرادة فيه فلا تكاد قوائمها ان تغيبا)

ثم ودع معارفه في دمشق ورحل عنها وخرج لتشييعه صديقه (السيد محمد جلبي

---

(١) اللادن بالدال ولعل الأفصح فيها ان تكون بالذال المعجمة وهو العصى لبان الذي يعلك او هو ضرب منه . قال في اللسان : (اللاذن واللاذنة من العلوك وقيل ... اللاذ... سة وقيل هو ندى يسقط على الغنم في بعض جزائر البحر) .

اليلداوي) مع جملة من الاصدقاء حتى قرية المزة قال « فأنزلونا في منزل شيخها الشيخ داود .... فوجدنا ذلك المنزل قد فرشت ارضه بالرخام الملون . وطرزت حيطانه بالقلمشاني من كل نوع مستحسن . وقد اجتمع في ذلك المنزل المعمور . جميع ابناء الحظ والسرور . وكان بصحبتنا السيد احمد المنقاري الاسجد . من فاق بحسن الصوت والالحان طويساً ومعبد » . ثم وصف لياليهم نظماً ونثراً ثم قال «فأخذني لحسن ذلك المنزل الحيرة . اذ كيف يتأتى وجود مثله في هذه القرية الصغيرة ! » . ثم قاموا نصف الليل للرحيل ووقفوا للوداع فوصف ما كان في ذلك الموقف من الألم والوجوم . وأنشد في ذلك اشعاراً جمة ووصف ما ستتركه هذه الزيارة في نفسه من الشوق والحنين . ثم بعد مسيره ثلاثة ايام وبعض اليوم الرابع وصلوا الى صيدا ونزلوا في خان (تلي اغا حمود) ثم وصف صيدا وما قاله (ابن شاهين) فيها ولكن كان وصفه لها هجواً في قالب مدح من ذلك قوله « ولعمري انها بلدة لولا حرارة مائها وهوائها . و برودة أوضاعها وأبنائها . لكانت جنة المأوى بلا مرا ... وكيف يسأم الناس بلدة اذا جلب اليها الماء يكتسب حرارة . واذا استجلب اليها العذب السائغ ينقلب الى غفوصة ومرارة . وكيف لا يمدح الماء الحار . وهو الذي يجلب المسار . و يدفع المضار . وهو الذي ينفع في الحمام للاغتسال والاستحمام . و يحال الأورام . وان شئت قلت يجلب البرسام والسلام» .

ثم قال المؤلف انه زاره في صيدا مفتيها (الشيخ عبد الغني) ووصفه بالفضل والعلم وانه حصل في الازهر فتعرف به ثمه وكان مع المفتي اديب صيدا (الشيخ احمد البزره) فوصفه وأثنى على أدبه وأخلاقه ثم قال « ولم ار في تلك الديار غير هذين . وما سواهما ملحق بالجمادات بلامين » . قال : وفي ثاني يوم زاره (السيد زكريا افندي) موفداً من قبل (جناب ابراهيم باشا) والي صيدا يدعوه الى الضيافة فذهب اليه فرحب به الباشا ووصف ذلك المجلس وسوّد صفحات ضمنها مباحث ومناظرات علمية جرت فيه ثم ركبوا البحر من صيدا ونزلوا (بقياسة غربية . متوكلين على رب البرية) . والقياسة ضرب من السفن كما مر في مقدمة الرحلة على (الكراس الشارد) ولكن لماذا وصف (القياسة) بالغربية ياترى ؟ او هي (عربية) بالعين المهملة ؟ ووصلوا (عكه) وبعد ثلاثة ايام بانت لهم قلاع دمياط فخرجت اليهم (النقاير) وهي جمع (نقيرة) ضرب من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السفن فركبوا نقيرة منها وجاوزوا البوغاز وحلوا بالنيل فأخذ المؤلف يصف النيل وما قيل فيه من الشعر وماقاله بطليموس وغيره من الحكماء الأقدمين في اصل النيل ومناشئه وجبال القمر التي ينبع منها ٠ ومن هنا استطرد الى الكلام عن مصر وذكر فنوناً من أخبارها ومزاياها ٠ ووصل دمياط ٠ وبعد ست سنين من وصوله اي سنة (١١٥٦) كتب رحلته هذه ٠

وخلاصة مايقال في هذه الرحلة انها كناش علم وأدب وأشعار ٠ اكثر مما هي كتاب رحلة ووصف أسفار وأطوار ٠ وصفحاتها نحو اربعمائة وثمانين صفحة لم نعثر فيها على ما نحن بسبيله وقاصدون اليه من الاخبار الاجتماعية والتاريخيـة سوى هذه الصفحات القليلة التي وضعناها تحت نظر القراء ٠ فليحكم عليها أو لها من شاء ٠

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net